

حياة جرجي زيدان ومكانته في الأدب العربي الحديث

*عذر ابروین

Abstract

This article deals with the life of Jourjee Zaidan and his literary status in modern Arabic Literature. He holds a special place in the world of literature by virtue of being initiators of historical novel writing in Arabic Literature respectively. He wrote twenty two novels. The aim of writing historical novels was to rise the Muslims of the world, who had not only been deprived of ruling, but had been forced to become slaves from their earlier position of being masters. The cultural identity of Muslims was distorted and it was an attempt to remind them of their past glory that stories of the golden past were presented. These stories emphasize the numerous victories scored by Muslims over non Muslims despite their smaller numbers and logistically weaker position. These novels were written with the view to generate and restore faith and Islamic spirit among the Muslims.

Keywords: Life of Jourjee Zaidan and his Literary Status in Arabic Culture and Literature.

تمهيد:

تعد حياة جرجي زيدان نموذجاً للعصامي الذي يشق حياته وسط طريق ملبد بالغيوم ملئ بالثغرات، فيحتاز ذلك بالهمة العالية والإرادة الصلبة، والتطلع إلى المعالي، لا يصرفه عن ذلك فقر حل به، وأظروف معاكسة، أو بيئة غير مواتية، يأتي إلى القاهرة فقيراً لا يملك من الدنيا شيئاً، فيصنع لنفسه حياة عريضة وشهرة واسعة في ميدان الصحافة والأدب والتاريخ.

ولادته ونشأته:

ولد جرجي زيدان في مدينة بيروت من أعمال سوريا في 14 ديسمبر عام 1861م، وتعلم مبادئ العلوم في بعض مدارسها الابتدائية حتى اضطرت الظروف إلى ترك المدرسة صغيراً ومساعدة والده في أشغاله، وكان لشدة رغبته في العلم يطالع ما تصل إليه يده من الكتب، وقد درس اللغة الإنجليزية في مدرسة ليلية في مدة لا تتجاوز خمسة أشهر، كان يصل كلال ليله بكلال نهاره غير هائب من تأثير التعب على صحته، وانتظم في جمعية شمس البر فضاءعت رغبته في الدرس، وكانوا يدعونه لحضور احتفالات الخريجين بالمدرسة الأمريكية، فكان يخرج حزيناً وهو يتمنى أن تتاح له فرصة التعليم الجامعي.

وفي عام 1881م فكر في دراسة الطب، فدرس العلوم الإعدادية في نحو شهرين و نصف شهر و تقدم للإمتحان فحاز قصب السبق و انخرط في القسم الطبي في المدرسة الأمريكية، فكان السنة الأولى ممتازاً أعلى أقرانه بالرغم من قيامه بأشغال خاصة، تساعده في النفقات.

* محاضرة في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة بقاء الدين زكريا ملتان

وفي أوائل السنة الثانية حصل الاختلال المشهور في تلك المدرسة فغادرها أغلب تلاميذها وفي جملتهم صاحب الترجمة، وتقدم لامتحان في مواد العلوم الصيدلية مع بعض رفاقه فنال الشهادة في اللغة اللاتينية والطبيعات والحيوان والنبات والكيمياء والتحليل والأقرباذين. و شخص على أثر ذلك إلى الديار المصرية، لتكملة دراسة الطب في قصر العيني، غير أن طول المدة لنيل الشهادة حول عزمه، فاشتغل بتثقيف نفسه وتولى تحرير جريدة الزمان مدة عام، ورافق الحملة التي ذهبت إلى السودان عام 1884م بوصفه مترجماً، فقضى هناك عشرة أشهر و شاهد من المواقع ما تشيب لهول الأطفال، وعاد إلى مصر وقد أنعم عليه بالنجمة المصرية وغيرها و في عام 1885م سافر إلى بيروت، فانتدب عضواً في المجمع العلمي الشرقي، فنقلن هناك اللغات العبرانية والسريانية وأحوالهما مدة عشرة أشهر، ووضع على أثر ذلك كتابه "الفلسفة اللغوية" وقدم منه نسخاً للمجامع العلمية الشرقية في أوروبا فعينه المجمع الآسيوي عضواً عاملاً فيه ، وفي أثناء ذلك ألف أحد معارفه رواية "البطلين"، وجعل صاحب الترجمة أحد بطليها والجنرال غوردون (باشا) البطل الثاني، و وصف فيها نتيجته اجتهاده ومواظبته.

و في صيف 1886م زار عاصمة بلاد الإنجليز، و كان يتردد على المتحف البريطاني وغيره ثم عاد في الشتاء إلى مصر فطلبت إليه إدارة المقتطف أن يتولى إدارة أعمالها والمساعدة في تحريرها ففعل، واستقال منها عام 1888م وعكف على الكتابة و ألف تاريخ مصر الحديث، بعد أن عانى في تأليفه الصعاب وفي أواخر عام 1889م انتدبه المدرسة العبيدية الكبرى بمصر ليتولى إدارة التدريس فيها ، فتولاها عامين، وألف أثناء ذلك رواية المملوك الشارد ثم تنحى عن التدريس، وأصدر مجلة الهلال في أواخر عام 1892م ، فكان يتولى تحريرها بنفسه إلى أن كبر نجله "إميل" وصار يساعده في تحريرها وفي عام 1897م انتخب عضواً في الجمعية الآسيوية ببريطانيا. ثم انتدبه المجمع الآسيوي الفرنسي عضواً به، وأهداه باي تونس و سام الافتخار من الدرجة الأولى، و أنعم عليه عباس الثاني برتبة المتمايز رغم تمنعه في قبولها، و انقطع إلى التأليف فكتب بعد إنشاء "الهلال" مؤلفات عدة ترجم أكثرها إلى اللغات الأخرى والتركية و الفارسية و الهندسية وغيرها. (1)

مؤلفاته التاريخية:

1. تاريخ مصر الحديث مزين بالرسوم، جزآن.
2. تاريخ العرب قبل الإسلام مزين بالرسوم جز واحد.
3. تاريخ التمدن الإسلامي مزين بالرسوم 5 أجزاء.
4. تاريخ الماسونية العام مزين بالرسوم جزء واحد.
5. تراجم مشاهير الشرق مزين بالرسوم جزآن.
6. التاريخ العام ، الجزء الأول مزين بالرسوم.
7. تاريخ اليونان و الرومان (مختصر)
8. تاريخ إنجلترا مزين بالرسوم.

مؤلفاته العلمية و اللغوية وغيرها:

1. مجلة الهلال، 1312 هجرى=1894م
2. الفلسفة اللغوية.
3. تاريخ اللغة العربية.
4. تاريخ آداب اللغة العربية 4 أجزاء.
5. أنساب العرب القدماء.
6. علم الفراسة الحديث، مزين بالرسوم.
7. طبقات الأمم، مزين بالرسوم.
8. عجائب المخلوقات، مزين بالرسوم.

سلسلة رواياته التاريخية الإسلامية:

1. فتاة غسان - جزآن.
2. أرمانيوس المصرية.
3. عذراء قريش.
4. 17 رمضان.
5. غادة كربلاء.
6. الحجاج بن يوسف.
7. فتح الأندلس.
8. شارل و عبد الرحمن.
9. أبو مسلم الخراساني.
10. العباسة أخت الرشيد.
11. الأمين والمأمون.
12. عروس فرغانة.
13. أحمد بن طولون.
14. عبد الرحمن الناصر.
15. الانقلاب العثماني.
16. فتاة القيروان.
17. صلاح الدين و مكائد الحشاشين.
18. شجرة الدر.

19. المملوك الشارد.

20. أسيرالمتمهدي.

21. استبداد المماليك.

22. جهاد المحيين.

الهجرة إلى القاهرة:

اعتزم جرجي زيدان الهجرة إلى القاهرة ليتم بها دراسة الطب، ولم يكن معه ما يكفي نفقات السفر، فافترض من جاره لبيروت ستة جنيهات على أن يردها إليه حينما تتيسر له الأحوال، ولما نزل القاهرة في (ذي الحجة 1300هـ/أكتوبر 1883م) صرف عزمه عن الالتحاق بمدرسة الطب لطول مدة الدراسة، وأخذ يبحث عن عمل يتفق مع ميوله، فعمل محررا في صحيفة "الزمان" اليومية التي كان يملكها ويديرها رجل أرمني الأصل يدعى "علكسان صرافيان".

وكانت صحيفة الزمان الجريدة اليومية الوحيدة في القاهرة بعد أن عطل الاحتلال الإنجليزي صحافة ذلك العهد، وبعد نحو عام عُيِّن مترجما في مكتب المخابرات البريطانية بالقاهرة عام (1301هـ/1884م)، ورافق الحملة الإنجليزية التي توجهت إلى السودان لإنقاذ القائد الإنجليزي "غوردون" من حصار المهدي وجيوشه، ودامت رحلته في السودان عشرة أشهر عاد بعدها إلى بيروت في سنة (1302هـ/1885م).

العودة إلى بيروت:

وفي بيروت انضم إلى اجمع العلمي الشرقي الذي أنشئ في سنة (1299هـ/1882م) للبحث في العلوم والصناعات، والإفادة منها بما يعود على البلاد بالنفع والخير، وتعلم اللغتين العربية والسريانية، وهو ما مكَّنه من تأليف أول كتبه "فلسفة اللغة العربية" سنة (1303هـ/1886م)، وهو يعد أول جهد واضح بُذل في تطبيق مبادئ فقه اللغة المقارن على اللغة العربية، وإن كان غير عميق التناول، وهو ما جعله يعيد فيه النظر مرة أخرى، ويعود إليه منقحا ومعدلا في طبعة جديدة أصدرها بعد ذلك في سنة (1322هـ/1904م) بعنوان "تاريخ اللغة العربية"، ثم زار جرجي زيدان لندن، وتردد على مكتباتها ومتاحفها، ومجامعها العلمية، ثم عاد إلى القاهرة.

الاستقرار في القاهرة:

استقر جرجي زيدان بالقاهرة، وتولى عقب عودته من لندن إدارة مجلة المقطف، وظل بها عاما ونصف العام، وقد قدم استقالته من المجلة سنة (1306هـ/1888م) ليشتغل بتدريس اللغة العربية بالمدرسة "العبيدية الكبرى" لمدة عامين، ثم تركها ليشارك سنة (1309هـ/1891م) مع "نجيب متري" في إنشاء مطبعة، ولم تستمر الشركة بينهما سوى عام، انفضت بعده واحتفظ جرجي زيدان بالمطبعة لنفسه، وأسماها مطبعة الهلال، على حين قام نجيب متري بإنشاء مطبعة مستقلة باسم مطبعة المعارف، ثم أصدر جرجي زيدان في سنة

(1304هـ/1892م) مجلة الهلال، وكان يقوم بتحريرها بنفسه، إلى أن كبر ولده "إميل" وصار مساعده في تحريرها.

نشاطه الفكري:

كان جرجي زيدان متمكناً من اللغتين الإنجليزية والفرنسية إلى جانب اللغة العربية، واسع الاطلاع بهما، وبخاصة فيما يتصل بالتاريخ والأدب العربيين، واتجهت مؤلفاته الأولى نحو هذا المضمار، وإن مالت نحو الدراسات التاريخية، فأصدر في سنة (1307هـ/1889م) كتاب "تاريخ مصر الحديثة" في مجلدين، و"تاريخ الماسونية والتاريخ العام"، وهو موجز في تاريخ قارتي آسيا وأفريقيا، ثم توالى كتبه: تاريخ إنجلترا، تاريخ اليونان والرومان، جغرافية مصر وطبقات الأمم وغيرها، غير أن هذه الكتب لم تلتفت إليه الأنظار، ولم تلق نجاحاً يذكر، إلى أن أنشأ مجلة الهلال التي ارتبطت حياته بها ارتباطاً وثيقاً.

مجلة الهلال:

وقد صدر العدد الأول من المجلة في (ربيع أول 1310هـ/1892م) يحمل افتتاحية بقلم جرجي زيدان أوضح فيها خطته، وغايته من إصدارها، وقد عكف على تحريرها بنشاط لفت إليه الأنظار، وكان ينشر فيها كتبه على هيئة فصول متفرقة، وقد لقيت المجلة قبولا من الناس حتى لم يكده يمضي على صدورها خمس سنوات حتى أصبحت من أوسع المجالات انتشاراً، وقد مد الله في عمرها حتى تجاوزت قرناً من الزمان، وكان يكتب فيها عمالقة الفكر والأدب في مصر والعالم العربي، ورأس تحريرها على مدى حياتها المدينة كبار الكتاب والأدباء، من أمثال: الدكتور أحمد زكي، والدكتور حسين مؤنس، والدكتور علي الراعي، والشاعر صالح جودت وغيرهم.

أهم كتبه:

يعد كتاب "تاريخ التمدن الإسلامي" الذي صدر في خمسة أجزاء في الفترة من (1320 - 1324هـ/1902 - 1906م) أهم مصنفاته، وقد أفاد الرجل من قراءاته ودراساته في المؤلفات الغربية، ومناهج التأليف في التاريخ والحضارة، فضلاً عن مطالعته الواسعة في المصادر العربية، وكان من يكتبون في تاريخ الإسلام يجرون على منهج رواة المسلمين القدامى مع شيء من التحسين، مثلما هو الحال في كتابات الشيخ "محمد الخضري"، ولم يكن لهم صلة بعالم الاستشراق أو وقوف على المناهج الحديثة. وقد أثار الكتاب عند ظهور أجزائه الأولى نشاطاً واسع المدى في أبحاث التاريخ الإسلامي، وأقبل عليه الناس، وكانت الجامعة المصرية قد قامت وامتألت قاعاتها بالطلاب، فانتبهت إلى مكانة جرجي زيدان وسعة علمه، فدعته إلى إلقاء سلسلة من المحاضرات في التاريخ الإسلامي، لكن حالت الظروف دون القيام بهذا العمل في الجامعة. وقد ترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات شرقية، كما ترجم المستشرق الإنجليزي "مارجوليوت" الجزء الرابع منه إلى الإنجليزية، وعده عملاً أصيلاً غير مسبوق.

ويعد كتابه "تاريخ آداب اللغة العربية" الذي صدر في أربعة أجزاء في الفترة (1329هـ - 1332هـ/1911 - 1914م) من أهم المراجع للمشتغلين بتاريخ الأدب العربي في عصوره المختلفة، وكانت فكرة تأليف هذا الكتاب قد شغلته منذ وقت مبكر، فنشر فصولاً في مجلة الهلال سنة (1312هـ/1894م) تحت هذا العنوان، ثم وسّع هذه الفصول حتى جعل منها كتاباً مستقلاً، ويعد جرجي زيدان رائد هذا الميدان، وإن سبقته محاولات محددة لم يكن لها مثل تأثير كتابه.

وتأثر جرجي زيدان بمنهج المستشرقين في دراسة تاريخ الآداب العربية، وبخاصة كتاب بروكلمان المستشرق الألماني في كتاب "الأدب العربي" وغيره من مؤلفات المستشرقين، وقد وضع في الصفحات الأولى من كتابه أسماء المراجع الفرنسية والإنجليزية والألمانية التي رجع إليها ونهل منها.

تأثير كتابه:

تأثر جرجي زيدان بمنهج المستشرقين في دراسة تاريخ الآداب العربية، وبخاصة كتاب بروكلمان المستشرق الألماني في كتاب "الأدب العربي" وغيره من مؤلفات المستشرقين، وقد وضع في الصفحات الأولى من كتابه أسماء المراجع الفرنسية والإنجليزية والألمانية التي رجع إليها ونهل منها. ويعد كتابه "تراجم مشاهير الشرق" من أهم المراجع التي يستأنس بها كل باحث و كاتب يبحث عن الترجمة لعلم من أعلام الشرق في القرن التاسع عشر، والكتاب لا يختص بطائفة معينة من الناس، وإنما يجمع بين أعلام السياسة والأدب والإدارة والحكم وغيرهم.

وفاته:

كان جرجي زيدان يعمل بانتظام شديداً، وبعزيمة قوية، ينكب على القراءة والتدوين ست عشرة ساعة متوالية في اليوم، مكتفياً من النوم بأربع ساعات في أخريات حياة، يسابق الزمن في إنجاز أعماله الضخمة، و وافته المنية وهو بين كتبه وأوراقه في مساء يوم الثلاثاء الموافق (27 من شعبان 1332هـ/21 من يوليو 1914م)

وقد رثاه كبار الشعراء من أمثال شوقي و حافظ إبراهيم و خليل مطران بقصائد مبكية. خلف جرجي زيدان ابنين و بنت هم: إميل وشكري وأسماء. اول شرقي في العصر الحديث جرجي زيدان كان عصامى في ثقافته و ثروته و مع أنه كان مسيحي لكن يرصد حياته لدراسة التاريخ الإسلامي.⁽²⁾

مكانته العلمية و الأدبية

جرجي زيدان ركن من أركان النهضة الحديثة، وعلم من أعلام الفكر في الشرق العربي، ورائد من رواد تجديد علم التاريخ والألسنية السامية والصحافة العربية والبحث العلمي الدقيق، وهو أول من فكر في تبسيط التاريخ، والجرى فيه على قواعد العلم الاجتماعي والعمرائي، وعلى قواعد التجري والتقصي في كثير من التجرد العلمي، وفي سعة من المعرفة التي تطلب الحقيقة في غير التواء ولا اعوجاج.

اما القصص التاريخي فقد عاجله جرجي زيدان على طريقة (ولترسكوت، Walter Scott)

الانكليزي وروائي القرن التاسع عشر من الفرنسيين الذين عرضوا التاريخ بطريقة الرواية المشوقة والسرد الممتع. (3) وكان جرجي زيدان رائد هذا الفن في العالم العربي، فوضع رواياته و سرد فيها تاريخ العرب المسلمين و تاريخ مصر الحديث و تاريخ الانقلاب العثماني. ولئن أكثر في اعتماده على عنصر المفاجأة للتشويق، ولئن كان تحليله النفسي ضعيفاً، ولئن ظهرت الشخصيات عنده وكأنها دمي يجركها كما يشاء، فإنه يسوق قصصه بأسلوب لا يخلو من متعة، وفيه مزيج من تاريخ أصيل و تخيلات تزيد السرد متعة، وتعد الجفاف الذي يعتبر التاريخ وأحداثه وهكذا استطاع زيدان أن يجرز نجاحاً بقصصه في العالم العربي، واستطاع بسلاسة كتابته، واختياره للموضوعات الشيقة أن يعوض عن النقص الذي لا تخلو منه رواياته. (4)

كتب عبداللطيف شرارة: يمكن أن نلخص الأسس الفكرية التي كان جرجي زيدان يصدر عنها كل ما أعطى و نشر، في ثلاثة مبادئ:

- 1- الحقيقة تغرض نفسها ولكن لا بد من البحث عنها.
- 2- الحس السليم هو القاعدة والمنطلق في كل سلوك بشري قويم.
- 3- التسامح أو البعد عن العصبية أفضل ما يزدان به المجتمع.

المبدأ الأول أخذه من مطالعته في التاريخ، وتفكيره في أحداثه، وقد روى عنه أحد أولاده أنه جعل شعار مجلته (الهلل) يوم أسسها "الى الأمام" وجعل حكمتها في السيرهما: "لا يصح إلا الصحيح ولا يبقى إلا الأصح" - وواضح من ذلك أن للفكر التاريخي أثراً لا ينكر في بناء زيدان العقلي، فكل من يعرف التاريخ معرفة صحيحة يجد من العث الرجوع الى الوراء، ومن القصور وسوء الفهم الاعتماد على ما هو كذب أو دجل أو ضلال. أما الحس السليم والتسامح، فلا أقل من أن يفكر القارئ في الموضوعات التي تناولها جرجي زيدان، في القالب الذي سكب به آراءه، في الظروف التي كانت تحيط به وهو يقوم بنشاطه في مختلف الميادين و الحقول الفكرية والعلمية، ليجد ما هو عليه من تسامح ودعوة الى سلامة الحس. وكان العقاد قد قال في شأنه: "تقرأ جرجي زيدان في جميع موضوعاته، فإذا هي مطبوعة بطابع السداد والاستقامة والاستقرار، هي جدول وليست بشلال، وهي بنت الدوام وليست بنت الفلتات والجمحات، وهي ماء قراح وليست بالأشربة المحلاة ولا بعصير الكروم....." (5)

إشتهر جرجي زيدان برواياته التاريخية الشهيرة التي بدأها برواية "المملوك الشادر" التي صدرت في سنة (1309هـ / 1891م)، ثم تتابعت رواياته حتى بلغت اثنتين و عشرين رواياته تاريخية، منها سبع عشرة رواية تعالج فترات من التاريخ الإسلامي، تمتد من الفتح الإسلامي إلى دولة المماليك، مثل: أرما نوسة المصرية ، غادة كربلاء، فتح الأندلس، العباسة أحت الرشيد، الأمين والمأمون، شجرة الدر و استبداد المماليك. وقد لقيت هذه الروايات رواجاً واسعاً وإقبالاً هائلاً، وترجمت إلى الفارسية والتركية، والأذربيجانية، وغيرها من اللغات، وتنحصر أهمية هذه الروايات في أنها قدمت التاريخ في صورة سهلة ومشوقة، وبلغت جذابة تحمل القراء على متابعة تاريخهم دون مشقة أو ملل.

ومع ذلك فإن تلك الروايات لم تسلم من النقد فيما يتصل بالشكل والمضمون: أما من ناحية الشكل والمعالجة فإن الأحداث تقوم على علاقة غرامية بين بطلي القصة، و تحول الدسائس دون التفاهما واجتماعهما وشخصيات رواياته متشابهة و نمطية فهو لا يهتم برسم شخصياته. أما من حيث المضمون فلم يلجأ جرجي زيدان إلى الفترات المشرقة من التاريخ الإسلامي، بل اتجه إلى الفترات التي تمثل صراعاً بين مذهبين سياسيين أو كتلتين متصارعتين على السلطة والنفوذ، ولم يتجه إلى التاريخ الإسلامي لإبراز أمجاده، وكان متأثراً في ذلك بنظرة المؤرخين الغربيين إلى العالم الإسلامي، ويأتي في روايته ذكر "الدير" بصورة مفتعلة. وعلى الرغم من ذلك فإنه يعد المؤسس لهذا اللون من الروايات التي تجمع بين التعليم والتسلية و التاريخ.⁽⁶⁾

الآراء المختلفة حول جرجي زيدان

يعرض الباحثون والمفكرون والعلماء والأدباء آراءهم حول جرجي زيدان:

يقول عبدالمحسن طه بدر:

"وقد حاول جرجي زيدان في ميدان الرواية ما حاوله مطران في ميدان الشعر. فحاول التوفيق بين متطلبات البيئة من ناحية، وبين تأثيره بالشكل الروائي العربي من ناحية أخرى، وكان له أكبر الأثر في ظهور التيار الثاني من الرواية التعليمية".⁽⁷⁾

فبعض المهاجرين مثل خليل مطران حاول التوفيق بين طبيعة عصرهم من ناحية وبين تأثيرهم بالأدب الأوربية من ناحية أخرى. وتأثر خليل مطران في شعره بالشعر العربي القديم وقدم بعض الأشكال الشعرية التي استمدتها من الشعر العربي. وكذلك تأثر جرجي زيدان بالرواية العربية مع اهتمامه بطبيعة عصره، وعصره كان مليئاً بالحوادث الحربية مثل الحرب العالمية الأولى. والشيء الثاني نجد في رواياته هو، تأثير الغرب. (والتر سكوت، Walter Scott) الإنجليزي الذي يعده الباحثون رائداً للرواية التاريخية في الغرب نجد أثره في روايات جرجي زيدان. حينما رحل جرجي زيدان إلى أوروبا فبدأ التأليف بعد رجوعه من إنجلترا، وبهذا التأثير كتب جرجي زيدان الرواية التعليمية وكان فيه العنصر القصصي حاداً للعنصر التعليمي. ويقول الدكتور يوسف نجم عن رواياته:

"... استطاع بآثاره العلمية والأدبية والصحفية أن يرضى الطبقات المختلفة ألف كتباً علمية و تاريخية ترضى الخاصة، وألف هذه القصص التي اعتمد فيها على تاريخ العرب المسلمين، لكي يلفت إليه أنظار العامة التي كانت تتلهى بالقصص الشعبي وأكثره تافه. واستطاع زيدان أن يرضى هذه الطبقة أيضاً. وأن يستميلها إلى قصصه، كما أرضى بآثاره الأخرى سواها من الطبقات، وهكذا كان زيدان معلماً للشعب بعامة، على اختلاف طبقاته و ثقافته...".⁽⁸⁾

أي عندما ترك جرجي زيدان لبنان واستقر في مصر. وجد نفسه في بيئة إسلامية وكانت هذه البيئة مختلفة عن بيئته الأصلية، لها معتقداتها الخاصة و تقاليدها، فحاول أن يغير نفسه وفق ما تتطلبه البيئة الجديدة.

وفاز في محاولته. وكتب لكل طبقة. وألف القصص التاريخية بأسلوب بسيط ورائع، حسب حاجة المجتمع، لكي يستفيد به عامة الناس لأن هدفه الأساسي من كتابة القصص التاريخية تعليم الشعب كما قيل.

يقول الدكتور محمود حامد شوكت:

"فلا ينكر أن الكاتب - يريد زيدان - بذل جهده في توسيع أفق الثقافة التاريخية، لا سيما نواحي الحرب والسياسة والحياة الاجتماعية في التاريخ الإسلامي الوسيط، وحاول أن ينتفع بمطالعائه في الثقافة الغربية، متأثراً بمحاولات علم النفس، للعواطف والنزعات، والحب والبغض، وفتح بذلك باب الاجتهاد والارتداد لمن يواصل الكتابة في هذا الباب، فهو رائد فضل التضحية والجهاد، وقد ترك لمن بعده مواصلة الاجتهاد في تمثيل التاريخ والتعبير عنه في فن ذي وحدة أعمق، وذو معنى أكثر إنسانية..." (9)

جرجي زيدان له مكانة تاريخية هامة. لأنه قدم الروايات التاريخية للقراء في عبارة سهلة. ومضى حياته لتوسيع الثقافة التاريخية. والعناوين التي بنيت عليها الرواية التاريخية، هي، الحرب والسياسة والحياة الاجتماعية. مثلاً رواية عذراء قريش وأرمانوسة المصرية وجهاد المحبين. استمد موضوعات رواياته من تاريخ الإسلام. ويزيد فيه العواطف والحب والبغض بخياله، وهو رائد له فضل التضحية والجهاد. ولكن أنا لا اتفق في هذا الرأي مع الكاتب. لأن سليم البستاني كتب الرواية التاريخية قبل جرجي زيدان، ويسمى جرجي زيدان رائداً لأنه فاز في محاولته بالنسبة لسليم البستاني، ولكن ما فهمت! أيّ التضحية قدّم جرجي في سبيل الرواية التاريخية؟! وبدأ جرجي أيّ جهاد؟! نجد رواياته عكساً من هذا لأن الروايات الإسلامية التي نحتمل ظاهرها طابع الإسلام وتخفي في باطنها المنكر والخداع.

ويقول محمد عبدالغني حسن:

"... واستخلص من ذلك كتباً ممتعة في آدابها، تشهد له بسعة الإطلاع، وأصالة الرأي، والبراعة في التبويب والتنسيق، فكان لهذه الكتب شأن كبير شرقاً وغرباً، وترجم بعضها إلى كثير من اللغات الشرقية والغربية، وبحث في تواريخ دول الإسلام وألف فيها كتاباً جليلاً، وبنى على نوادرها سلسلة من الروايات التاريخية الفكاهية، جمع فيها زبدة تواريخ تلك الدول على أسلوب لا يمل القارئ" (10)

يصف الكاتب في هذه الفكرة أسلوب جرجي زيدان بصفة ممتازة. ويقول إن بعض الكتب الخاصة معروفة في مجتمعنا، وممتعة في آدابنا، ولها شأن كبير في الشرق والغرب، وترجمت في عدة اللغات الأجنبية، منها روايات جرجي زيدان التي كتب على التاريخ. وكتبها جرجي زيدان على الطريقة الجذابة التي لا يملها القارئ خلال القراءة.

يقول المستشرق الروسي (كراتشكوفسكي Kratchkovski) :

"وقد أبرز الربيع الأول من القرن العشرين ما كان لزيدان من شأن كبير وسيظل اسمه مذكوراً على الدوام في تاريخ الأدب العربي الحديث، وفي المجتمع العربي الحديث" (11)

وضع الكاتب عدداً من الروايات التاريخية، تناول في كل رواية منها تاريخ عصر من العصور الإسلامية وصوره كما يحلوه، معتمداً على كتب تاريخية قديمة.

وهذه آراء الباحثين كانت في حق جرجي زيدان. ونجد بعض الباحثين الذين وقفوا ضد جرجي زيدان. ومنهم:

المازني:

"وليست مؤلفاته من الإبداع والحسن بحيث تصبح عندنا في مرتبة آباءنا وأحبابنا وتجاربنا لما يتجلى فيها من سعة الروح التي تكاد تلتهم الدنيا وتساوي العالم الذي تصوره كلا ليست كتب زيدان من هذا الضعف وليس زيدان في الحق إلا رجلاً من الأوساط لم يرفعه الذكاء وقوة الذهن وسعة الروح إلى مرتبة العظماء والفحول ولم يهبط به الغباء والبلادة إلى درجة العوام والغوغاء". (12)

رأيت فيها كثيراً من الصواب لأنه لا نجد في روايات زيدان عن العصور القديمة وما نشعر بأي شيء من روح العصر الذي يطالعنا بجواده، ولا نحس شيئاً من مظاهره حتى اللغة التي يجري بها على ألسنة أبطالنا، وشوّه سيرة أبطالنا. ولا نستطيع أن نقول أنه وصل إلى قمة العلم والأدب. ويقول سرور نايف زين العابدين:

"لا أعرف أحداً من الصليبيين في الدنيا العرب عمل على تلوين تاريخنا الإسلامي كما فعل (جرجي زيدان) لقد أمضى سني عمره يكتب، وكان ممزقاً كذاباً في معظم ما حشده من أخبار و تعليقات في كتبه، وكان مهمته في هذه الحياة تلخيص أقوال الباطنيين الحاقدين والمستشرقين الماكرين، وإخراجها باسم تاريخ التمدن الإسلامي، وأخرى باسم روايات الإسلام". (13) ويقول فوزي صالح عن رواياته:

"أما روايات جرجي زيدان، فقد كتبت لتشويه ومهاجمة الإسلام، مظهره حكامه، وقواده العظام في صورة اللاهين العابثين الذين لاهمّ لهم إلا المتعة والبذخ، كما صورت الانتصارات الإسلامية. على أنها مجرد صُدف، أو خيانة في صفوف الأعداء. "مثل - العباسة أخت الرشيد" (14) ويقول عوض هلال عوض:

"برز في نهاية القرن الماضي وبداية القرن العشرين رجل كتب أكثر من عشرين رواية أطلق عليها (روايات الإسلام) صبّ فيها جميعاً جام حقه و تعصبه على الإسلام وأعلامه وأهله منذ فجر الإسلام المجيد وحتى العصر الحاضر. وذلك من خلال عرض روائي جذاب يحمل في طياته شبهات وطعنات ضمن حبكة قصصية فنية إنه جرجي زيدان". (15)

الآراء الأخيرة كلها تدور حول رأي واحد وهو أن جرجي زيدان لم يكتب رواية إسلامية وإنما كتب روايات غير إسلامية وجعل من التاريخ ستاراً يستر فيه أهدافه الحقيقية، أي نعم القالب رواية تاريخية إسلامية. ويدعى نفسه أنه كتب الرواية التاريخية من أجل تعليم الشعب، ولكن مضمون الرواية التاريخية غير إسلامية لأنه يهدم بنيان الإسلام. ويتضح هذا من خلال قراءتنا الروايات جرجي زيدان. وأجمع أكثر الأدباء والنقاد على إحراجه من دائرة الأدب الإسلامي.

ويقول الدكتور محمد السيد الوكيل:

"ومن أشهر من افترى وزيف التاريخ الإسلامي في العصر الحديث الكاتب المسيحي جرجي زيدان الذي استتر برداء العروبة، وتوارى خلف شعارات القومية، ومهد لإعلام الغربي ليلعب دوره الطبيعي في كتابة التاريخ الإسلامي مشوها مبتورا، يزينه بأسلوب رقيق ممتع، ويغلفه بعناوين زاهية براق، ويقدمه في صورة قصة غرامية أحاذة". (16)

هكذا تتعدد الآراء حول روايات تاريخ الإسلام لجرجي زيدان ولكنها تكاد تتفق - المؤيد منها والمعارض - على تصرف الكاتب في أحداث وشخص التاريخ الإسلامي بالتغيير والتبديل والتقدم والتأخير مما جعل تلك الروايات تفقد أهم ركيزة فنية للرواية التاريخية الإسلامية، ألا وهي الموضوعية القائمة على إيجاد التوازن بين الصدق الفني، والصدق التاريخي. (17)

ولكن من المعروف أن جرجي زيدان من أكبر مشوهين التاريخ الإسلامي النبيل، (وهو واضح في سرده وكتبه) وذلك بتحويل فتوحات المسلمين على أهما قصص عشق وما إلى ذلك، وتشويه سير الملوك والخلفاء المسلمين، ولذلك لا يعتبر من الثقات في رواية التاريخ الإسلامي.

وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية الأردنية اسم شبلي وهيكل مقترنين بكتابة فن السيرة والدفاع عن الإسلام ضد المستشرقين عند ما كتب الأول "سيرة النبي" و "الفاروق"، وكتب الثاني "حياة محمد" و "الفاروق عمر".

وزار شبلي مصر وظل بها أكثر من شهر، وكانت بينه وبين الكتاب والمثقفين مثل: رشيد رضا و جرجي زيدان وغيرهما صداقة وطيدة و تبادل للزيارات، حيث زار رشيد رضا الهند ورأس الاجتماع السنوي لندوة العلماء التي أسسها شبلي النعماني، كما كتب شبلي مقالات كثيرة باللغة العربية في الهلال والمقتطف والمنار. (18)

كما تقول د. زينب محمد صبري:

في مقالها بعنوان: "صورة المرأة في القصة الإسلامية":

"كنت منذ أمد بعيد ينوف عن ربع قرن أتطلع إلى قصص إسلامي يتحدث عن المرأة حديث عفة و نزاهة، حديثا يحضها على الخير لا على الرذيلة، وكانت نفسى تناف ما يكتبه يوسف السباعي وإحسان عبدالقدوس و جرجي زيدان وأمثالهم ممن يشوهون صورة المرأة المسلمة في التاريخ، ويقدمون لبنات الجيل ما يقودهن إلى الانحراف". (19)

خلاصة البحث:

حاولت في هذا المقال أن ألقى الضوء على حياة جرجي زيدان و مكانته العلمية والأدبية في الأدب العربي الحديث فخلصت من الدراسة بأن جرجي زيدان روائي تاريخي كبير، له مكانة مرموقة في الأدب العربي. اشتهر جرجي زيدان برواياته التاريخية الإسلامية.

يعرف جرجي زيدان في تاريخ الأدب العربي مؤلفاً لأعمال لغوية و تاريخية- وقدّم زيدان رواياته في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين و يعرض في رواياته الأفكار الأوربية، الحرية والمساواة والآراء حول

القوانين العادلة، ورفض التباين الطبقي و تحرير المرأة. كل ذلك اختلط مع أفكار نهضة الإسلام والعالم العربي. وينشأ نوع جديد بالنسبة للأدب العربي، هو الرواية التاريخية. يقول بعض النقاد بأنه شوّه التأريخ الإسلامي ولكنه كاتب كبير وأديب و مؤرخ من رواد الصحافة والتأليف.

المصادر والحواشي

- 1- جرجي زيدان: حياته - أعماله - ما قبل فيه: نظير عبود، الطبعة الأولى، دارالجليل، بيروت 1403هـ، ص: 95.
- 2- تاريخ آدب اللغة العربية: جرجي زيدان، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، 1983م، 33/4-34.
- 3- في الأدب الحديث: عمر الدسوقي، الطبعة السابعة، دارالكتاب العربي بيروت 1966م، 492/1.
- 4- دراسات في نقد الرواية: دكتور طه وادي، الطبعة الأولى، دارالهلال، القاهرة، 1984م، ص: 95.
- 5- دراسات في الأدب العربي الحديث: دكتور محمد مصطفى هدارة، الطبعة الأولى، دار العلوم العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1410هـ/1990م، ص: 343.
- 6- جرجي زيدان محمد عبدالغني حسن، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1970م، ص: 95.
- 7- تطور الرواية العربية الحديثة في مصر: عبدالمحسن طه بدر، الطبعة الرابعة، دارالمعارف، القاهرة، 1938م، ص: 94.
- 8- القصة في الأدب العربي الحديث: دكتور محمد يوسف نجم، طبعة بيروت، 1966م، ص: 188.
- 9- الفن القصصي في الأدب المصري الحديث: محمود حامد شوكت، الطبعة الأولى، دارالفكر العربي، بيروت، لبنان (بدون التاريخ) ص: 151.
- 10- جرجي زيدان: محمد عبدالغني حسن، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1970م، ص: 222.
- 11- دائرة المعارف الإسلامية: أحمد الشنتاوي، وإبراهيم زكي خورشيد و عبدالحميد يونس، دارالفكر، بيروت، لبنان، ص: 11/8.
- 12- زيدان وحده: المازني. مقتبس من كتاب الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث، قاسم عبده و احمد ابراهيم الهوارى، دار المعارف، مصر، 1989م، ص: 171.
- 13- دراسات في السيرة النبوية: محمد سرور بن نايف زين العابدين، الطبعة الأولى، دار الأرقم للنشر والتوزيع، دمشق، 1986م، ص: 193.
- 14- حول الرواية الإسلامية : فوزي صالح، مقال منشور في مجلة "الأمة الاسلامية"، شهرية، العدد 46، قطر 1983م، ص: 50.

- 15- الرواية التاريخية عند جرجي زيدان: عوض هلال عوض، مقال منشور في مجلة "العربي"، العدد 189، الكويت 1994م، ص: 66.
- 16- نبش الهديان من تاريخ جرجي زيدان: أمين بن حسن الحلواني، الطبعة الأولى، مكتبة ابن القيم، المدينة المنورة، 1410هـ، ص: 6.
- 17- نقاط التطور في الأدب العربي: علي شلق، الطبعة الأولى، دارالقلم، بيروت 1975م، ص: 448.
- 18- سيرة الفاروق عمر بين شبلي النعماني وهيكل : دكتور جلال السعيد مصطفى الحفناوي له مقال نشر في مجلة "الفيصل" العدد 234، الرياض 1416هـ / 1996م، ص: 68.
- 19- أدب المرأة، دراسات نقدية : زينب محمد صبري، من بحوث المتلقى الدولي الأول للأدبيات الإسلامية المنعقد في القاهرة 1419هـ / 1999م، ص: 119.